المُحَاضرة السَّابعة: إعجازُ القُرآنِ عندَ ابنِ قُتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ)

المسألة الأولى: مَن هو ابنُ قُتيبةَ؟

– هو: أَبُو مُحَمَّدٍ، عَبْدُ اللهِ بنُ مُسْلِمِ بنِ قُتَيْبَةَ.

– العَلاَّمَةُ، الكَبِيْرُ، ذُو الفُنُوْنِ. من أعلام شيوخه: إِسْحَاقُ بنُ رَاهوَيْه وَأَبو حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيُّ، ومن أعلام تلاميذه: ابْنُهُ القَاضِي؛ أَحْمَدُ بنُ عَبْدِ اللهِ، بِدِيَارِ مِصْرَ، وابنُ دُرُسْتَوَيْه النَّحْوِيُّ. قَالَ الخَطِيْبُ البغداديُّ: كَانَ ثِقَةً دَيِّناً فَاضِلاً. وَلِيَ قَضَاءَ الدِّينَوَر، وَكَانَ رَأْساً فِي عِلْمِ اللِّسَانِ العَرَبِي، وَالأَخْبَارِ، وَأَيَّامِ النَّاسِ.

– له كثيرٌ من المصنَّفات، منها: تفسير غريب القرآن، وتأويل مشكل القرآن، وأدب الكاتب، وعيون الأخبار.

– مَاتَ أَبُو مُحَمَّدٍ بنُ قُتَيْبَةَ فُجَاءةً، صَاحَ صَيْحَةً سُمِعَتْ مِنْ بُعْدٍ، ثُمَّ أُغمِيَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَكَلَ هَرِيْسَةً، فَأَصَابَ حَرَارَةً، فَبَقِيَ إِلَى الظُّهْرِ، ثُمَّ اضطَرَبَ سَاعَةً، ثُمَّ هَدَأَ فَمَا زَالَ يَتَشَهَّدُ إِلَى السَّحَرِ، وَمَاتَ رحمه الله، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ، سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِيْنَ وَمائَتَيْنِ (276هـ)[1].

المسألة الثَّانية: مُجملُ رأيِ ابن قتيبة رحمه الله في الإعجاز من خلال كتابه (تأويل مشكل القرآن)

الكلامُ عن الإعجاز عند ابن قُتيبة رحمه الله، يندرجُ في (دورِ الإشارات)؛ لأنَّه ليس لابن قُتيبة رحمه الله مُؤَلَّفٌ خاصٌّ في (إعجاز القُرآن الكريم)، وربَّما لهذا السَّبب أهملَ ذِكْرَهُ مَنْ أرَّخ للإعجاز القرآنيِّ من المعاصرين؛ كالخطيب في (الإعجاز في دراسات السَّابقين)، ونعيم الحمصي في (فكرة الإعجاز من البعثة إلى العصر الحاضر)، وجُلُّ كلامهِ في الإعجاز أو كلُّه مُستنبَطٌ من الإشارات الَّتي بثَّها في مُصنَّفاته، خاصَّةً كتابه (تأويل مشكل القرآن)[2]. ولذلك سنحاولُ أن نُلِمَّ بجوانب الحديث عن الكتاب في النِّقاط الآتية:

– أهمِّيَّة الكتاب في البلاغة العربيَّة بصفة عامَّة:

يرى بعض الباحثين أنّ: «ابنَ قتيبة حلقةُ وصل مُهمّةٌ في تأريخ البحث البلاغيّ؛ لأنّه يمثّل مرحلةً غفل عنها كثير من المؤرّخين لنشأة البلاغة، إذ يُشيدون ببدايات الجاحظ، ويقفزون إلى جهد ابن المعتزّ، وإسهامُ

[1] يُنظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج11، ص411. و: القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج2، ص143. و: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص42. و: الذَّهبي، سير أعلام النبلاء، ج13، ص296.

[2] يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص41. و: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص47.

ابنِ قُتيبة يمثّل مرحلةَ تجميعِ ما تفرّق عند الجاحظ، وتنظيم القضايا البلاغيّة وترتيبها وتبويبها، وإضافة قضايا مُهمّة، وربط ذلك كلّه بالدّفاع عن القرآن الكريم»[1]. ولعلّه في ذلك مُستفيدٌ ممّا قرّره الأستاذ السيّد أحمد صقر، عند كلامه عن القضايا البلاغيّة في كتاب (تأويل مُشكل القرآن)، إذ يقول: «ولأبواب المجاز الّتي ذكرها ابنُ قُتيبة في هذا الكتاب، قيمةٌ تاريخيّةٌ كبيرة؛ لأنّها ستضيف لمعارفنا عن تطوّر البلاغة شيئًا جديدًا، فالشّائع الذّائع بين الخاصّة وغيرهم: أنّ البلاغة العربيّة طفرت من نِثار الجاحظ المبثوث في كُتبه، إلى (بديع) ابن المعتزّ، طفرةً واحدة، ولم يعرفْ أحدٌ أنّ ابن قتيبة قد أسهم في تكوينها وتطوّرها بنصيبٍ موفور. فظهور تلك الأبواب في هذا الكتاب، يُظهِرنا على تلك الحلقة المفقودة في تاريخ البلاغة، ويُضيف إلى أمجاد ابنِ قُتيبةَ مجدًا آخرَ عظيم الشّأن، سيذكره الذّاكرون، كلّما تحدّثوا عن تاريخ البلاغة ونشأتها. ولن يستطيع باحثٌ أن يُغفِل صنع ابنِ قتيبة في استخراج ما في القرآن من أنواع المجاز، وتبويبها أبوابًا مُفصّلة [...] قبل أن يُؤلّف ابن المعتزّ كتاب (البديع) في سنة أربعٍ وسبعين ومائتين، بسنواتٍ وسنواتٍ»[2].

على أنَّ ممَّا يُنَبَّهُ عليه في هذا المقام؛ أنَّ لفظ (المِجاز) عند ابن قتيبة، لا يزال يستخدم بالمعنى العامّ كما هو عند أبي عبيدة، أي أساليب العرب في كلامها وما تُجَوِّزه من وُجوه مُخاطباتها، ولم يذهب إلى المعنى الاصطلاحي عند المتأخرين ولم يشر إليه في كلامه[3].

– سبب تأليف الكتاب:

كتابُ ابنِ قتيبة لم يُؤَلَّف ابتداءً لبيان قضيَّة الإعجاز القُرآنيِّ، وإنَّما كان دفاعًا وردًّا على الطَّاعنين في القرآن بأنَّه متناقضٌ مُختلفٌ فاسدُ النَّظم، وهو صنفٌ آخرُ من التَّأليف في هذا الميدان. وقد بيَّن ابنُ قُتيبةَ رحمه الله في صدر (تأويل مُشكل القرآن) سببَي تأليف الكتاب، وهما: حماية قلوب الأغرار ممّا يُروّج له الملاحدة وأذنابهم، من مطاعن في القرآن الكريم، والذّبّ عن كتاب الله ﷻ والدّفاع عنه[4]. فقال رحمه الله: «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا (مَا تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ)[آل عمران:7] بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله.

---

[1] محمد بن علي الصامل، المدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، ص26.

[2] السيد أحمد صقر، مقدمة تحقيق (تأويل مشكل القرآن)، ص82.

[3] يُنظر: فاضل النعيمي، مقال (إعجاز القران الكريم في مرحلة البناء والتأسيس – ابن قتيبة)، موقع جامعة بابل، تاريخ الإضافة: 2018/06/10.

[4] يُنظر: العيد حِذِّيق، جهود أهل السنة والجماعة في إعجاز القرآن الكريم، ص70-73.

ثم قضوا عليه بالتّناقض، والاستحالة، واللّحن، وفساد النّظم، والاختلاف. وأدْلَوا في ذلك بعلل رُبَّمَا أمالتِ الضَّعيفَ الغُمْرَ، والحَدَثَ الغِرَّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور [...] فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة، والبراهين البيّنة، وأكشف للناس ما يلبسون.

فألفت هذا الكتاب، جامعا لتأويل مشكل القرآن، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشَّرح والإيضاح»[1].

– أهمُّ مضامين الكتاب:

– بالرَّغمِ من كون كتاب ابن قتيبة (تأويل مشكل القرآن) أُلِّفَ للردِّ على مطاعن بعضِ الملحدين في نظم القُرآن، وذلك يقتضي كلامًا تطبيقيًّا على الآيات الَّتي تعرَّضت للطَّعن؛ وهو ما نجدُ منه شيئًا غيرَ قليلٍ في الكتاب، إلاَّ أنَّا لا نَعدَمُ كذلك كلامًا عن بعضِ القضايا النَّظريَّة في الإعجاز، من قبيلِ وجه الإعجاز، والقدر المعجز، والتحدي والعجز عن المعارضة. يقول بعضُ الباحثين: «فإنّه لما ألّف كتابه (تأويل مشكل القرآن)، صدَّرَهُ بِبَيَان وجهِ الإعجاز القرآنيِّ، إضافةً إلى بيانه لكثيرٍ من وُجُوهِ البلاغةِ في القرآنِ، فهو مِمَّنْ تكلَّم في الإعجازِ ولكنَّه لم يُفرده بكتاب مستقلٍّ»[2].

– وجه الإعجاز: وجه الإعجاز عند ابن قتيبة هو الوجه البلاغيُّ، وقد أشار إليه في مقدِّمة كتابه؛ وسمَّاه: مُعجز تأليفه وعجيب نظمه. قال: «الحمد لله الذي نهج لنا سبل الرّشاد، وهدانا بنور الكتاب، (وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً)[الكهف:1]، بل نزّله قيّما مفصّلا بيّنا (لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[فصلت:42] وشرّفه، وكرّمه، ورفعه وعظّمه، وسماه روحا ورحمة، وشفاء وهدى، ونورا.

وقطع منه بمعجز التّأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النّظم عن حيل المتكلّفين، وجعله متلوّا لا يملّ على طول التّلاوة، ومسموعا لا تمجّه الآذان، وغضّا لا يخلق على كثرة الرد، وعجيبا لا تنقضي عجائبه، ومفيدا لا تنقطع فوائده، ونسخ به سالف الكتب. وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه، وذلك معنى قول رسول الله ﷺ: (أوتيت جوامع الكلم)»[3].

– القدر المعجز والتحدِّي والعجز عن المعارضة: وأشارَ إلى هذه القضايا عَرَضًا عند كلامه عن شُبهات الطَّاعنين في أسلوب القرآن الكريم، وأنَّها لو صحَّت لهم هذه الشُّبهاتُ؛ لتعلَّق بها مَنْ قبلَهم من المشركين.

---

[1] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص23.

[2] محمد العواجي، إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيميَّة، ص102.

[3] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص11.

قال: «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا (ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ)[آل عمران:7] بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله. ثم قضوا عليه بالتّناقض، والاستحالة، واللّحن، وفساد النّظم، والاختلاف. وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضّعيف الغمر، والحدث الغرّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور.

ولو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأوّلهم؛ لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله ﷺ يحتجُّ عليه بالقرآن، ويجعله العَلَمَ لنُبُوَّته، والدليلَ على صدقه، ويتحداه في موطن بعد موطن، على أن يأتي بسورة من مثله. وهم الفصحاء والبلغاء، والخطباء والشعراء، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللُّدد في الخصام، مع اللُّب والنُّهَى، وأصالة الرّأي. وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب، وكانوا مرّة يقولون: هو سحر، ومرة يقولون: هو قول الكهنة، ومرة: أساطير الأولين. ولم يحك الله تعالى عنهم، ولا بلغنا في شيء من الروايات، أنهم جدبوه من الجهة التي جدبه منها الطاعنون»[1].

– مُعجزةُ كلِّ نبيٍّ من جنسِ ما يُحسِنُه قومُه: قال رحمه الله: «وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمّة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب خصِّيصَى من الله، لما أرهصه في الرسول، وأراده من إقامة الدليل على نبوّته بالكتاب، فجعله علمه، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه:

فكان لموسى فلقُ البحرِ، واليدُ، والعصَا، وتفجُّرُ الحجرِ في التِّيه بالماء الرَّوَاءِ، إلى سائر أعلامه زمن السِّحْرِ.

وكان لِعِيسى إحياءُ الموتَى، وخلقُ الطَّيْرِ من الطينِ، وإبراءُ الأكمهِ والأبرصِ، إلى سائرِ أعلامِه زمنَ الطِّبِّ.

وكان لمحمَّدٍ ﷺ الكتابُ الذي لو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا به، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا، إلى سائرِ أعلامِه زمنَ البَيَانِ»[2].

– وأمَّا مسائلُ الكتابِ التَّطبيقيَّةُ؛ فإنَّها كثيرةٌ، وهي غايةٌ في النَّفاسةِ والفائدةِ، من قبيل: المجاز والإستعارة، والحذف والإختصار، والكناية والتعريض، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه وغيرها، ولكنَّا سننتقي من طُعون الطَّاعنين وردِّ ابن قُتيبة عليهم في ثلاث مسائل هي: اختلاف القراءات، ودعوى التناقض في القرآن، ودعوى الإختلاف وفساد النَّظم. وبيانُها كالآتي:

[1] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص23.

[2] المصدر نفسه، ص17.

– الاختلاف في القراءات: قال ابنُ قُتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ) حاكيًا عن الطَّاعنين: «وكان مما بلغنا عنهم؛ أنَّهم يحتجُّون بقوله ﷻ: (وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً)[النساء:82]، وبقوله: (لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)[فصلت:42]. وقالوا: وجدنا الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم، يختلفون في الحرف: فابن عباس يقرأ: (وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ)[يوسف:45]، وغيره يقرأ: (بَعْدَ أُمَّةٍ). وعائشة رضي الله عنها تقرأ: (إذ تَلِقُونَهُ)[النور:15]، وغيرها يقرأ: (تَلَقَّوْنَهُ) [...] والقرَّاء يختلفون: فهذا يرفع ما ينصبه ذاك، وذاك يخفض ما يرفعه هذا. وأنتم تزعمون أن هذا كله كلام رب العالمين، فأيّ شيء بعد هذا الاختلاف تريدون؟ وأي باطل بعد الخطأ واللحن تبتغون؟»[1].

ثمَّ إنَّه ردَّ على هذه الشُّبهة بقوله: «فإن قال قائلٌ: هذا جائز في الألفاظ المختلفة إذا كان المعنى واحدا، فهل يجوز أيضا إذا اختلفت المعاني؟ قيل له: الاختلاف نوعان: اختلاف تغاير، واختلاف تضادّ. فاختلاف التّضاد لا يجوز، ولَسْتَ واجدَهُ بحمدِ الله في شيء من القرآن، إلا في الأمر والنهي من الناسخ والمنسوخ.

واختلاف التغاير جائز، وذلك مثل قوله: (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) أي بعد حين، و(بَعْدَ أَمَهٍ) أي بعد نسيان له، والمعنيان جميعا وإن اختلفا صحيحان؛ لأنه ذكر أمر يوسف بعد حين، وبعد نسيان له، فأنزل الله على لسان نبيه ﷺ بالمعنيين جميعا في غرضين.

وكقوله: (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ)، أي تقبلونه وتقولونه، و (تَلِقُونَهُ) من الوَلَقِ، وهو الكذب، والمعنيان جميعا وإن اختلفا صحيحان، لأنهم قبلوه وقالوه، وهو كذب، فأنزل الله على نبيه بالمعنيين جميعا في غرضين»[2].

– دعوى وجُودِ التَّناقُضِ في القُرآنِ الكريم: «قالوا: وهل التناقض إلا مثل قوله: (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ)[الرحمن:39]، وهو يقول في موضع آخر: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ) [الحجر:92-93]. [...]

ومثل قوله: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ)[الطور:25، والصافات:27]. وهو يقول في موضع آخر: (فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ)[المؤمنون:101]»[3].

[1] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص24.

[2] المصدر نفسه، ص33.

[3] المصدر نفسه، ص33.

قال ابنُ قُتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ): «فأما ما نَحَلوه من التناقض في مثل قوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ)[الرحمن:39]. وهو يقول في موضع آخر: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ)[الحجر:92-93].

فالجواب في ذلك: أن يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى: (مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)[المعارج:4]، ففي مثل هذا اليوم يسألون، وفيه لا يسألون؛ لأنهم حين يعرضون يوقفون على الذنوب ويحاسبون، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة؛ (انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ)[الرحمن:37]، وانقطع الكلام وذهب الخصام، واسودّت وجوه قوم، وابيضت وجوه آخرين، وعُرِف الفريقان بسيماهم، وتطايرت الصحف من الأيدي، فآخذُ ذاتِ اليمينِ إلى الجنة، وآخذُ ذات الشمال إلى النار. وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله: (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ)، قال: هو موطن لا يسألون فيه. ومثله: (وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)[القصص:78]، وقوله: (لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ)[ق:28]»[1].

وحاصلُ هذا الكلام؛ أنَّ يومَ القيامةِ يومٌ طويلٌ مقدارهُ خمسُون ألفَ سنةٍ ممَّا يعدُّ النَّاس؛ وفيه مواقفُ مُتعدِّدةٌ؛ فعند العرضِ على الله ﷻ يُوقَفُ كلُّ أحدٍ على عَمَلِه ويُسأَلُ عنه ويُحاسَبُ، فإذا قُضي الحساب؛ فلا يُسألُ حينها عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ.

وأمَّا الموضعُ الثَّاني؛ فقد وجَّهه ابنُ قُتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ) بقوله: «وقوله: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ)[الطور:25]، وهو يقول في موضعٍ آخرَ: (فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ)[المؤمنون:101]، فإنَّه إذا نفخ في الصُّورِ نفخةٌ واحدةٌ، تقطَّعت الأرحام، وبطلت الأنساب، وشُغِلوا بأنفسهم عن التَّسْآَلِ، و(فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ)[الزمر:68]. فإذا نفخ فيه أخرى؛ قاموا ينظرون (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ)[الصافات:27]، وقالوا: (مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)[يس:52]. وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنه»[2].

---

[1] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص46.

[2] المصدر نفسُه، ص47. وعكس الإمام أحمد رحمه الله (ت:241هـ) التوجيه فقال: «وأما قوله: (فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ)[المؤمنون:101] وقال في آية أخرى: (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)[الصافات:50]. فقالوا: كيف يكون هذا من المحكم؟ فشكوا في القرآن من أجل ذلك.

فأما قوله ﷻ: (فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ)؛ فهذا عند النفخة الثانية، إذا قاموا من القبور، لا يتساءلون ولا ينطقون في ذلك الموطن، فإذا حوسبوا، ودخلوا الجنة والنار، أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، فهذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة» الرَّدُّ على الجهميَّة والزَّنادقة، ص64-65.

– دعوى فَسادِ النَّظم القُرآنيِّ: ممَّا ذكره الطَّاعنون؛ «قالوا في قوله ﷻ: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)[مريم:96]، هل يجوز أن يقال: فلان يجعل لك حبًّا، أي يحبك؟

وفي قوله ﷻ: (وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتا)[النبأ:9]، والسُّبَاتُ هو: النوم، فكيف يجوز أن يجعل نومَنَا نومًا؟»[1].

وقد أجاب عن ذلك ابنُ قُتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ) بقوله: «وأما قوله ﷻ: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)[مريم:96]، فإنه ليس على تأوّلهم، وإنما أراد أنه يجعل لهم في قلوب العباد محبّة.

فأنت ترى المخلص المجتهد مُحَبَّبًا إلى البَرِّ والفاجر، مَهِيبًا مذكُورًا بالجميلِ. ونحوه قول الله سبحانه في قصة موسى عليه السلام: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)[طه:39]، ولم يرد في هذا الموضع (أني أحببتك)، وإن كان يحبه، وإنما أراد أنه (حَبَّبَهُ إلى القلوب)، وقرّبه من النفوس، فكان ذلك سببا لنجاته من فرعون، حتى استحياه في السّنة التي كان يقتل فيها الولدان.

وأما قوله ﷻ: (وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً)[النبأ:9]، فليس السُّبَات هاهنا: النوم، فيكون معناه: وجعلنا نومكم نوما؛ ولكنَّ السُّبَاتَ الراحةُ؛ أي جعلنا النوم راحة لأبدانكم. ومنه قيل: يوم السبت، لأن الخلق اجتمع في يوم الجمعة، وكان الفراغ منه يوم السبت، فقيل لبني إسرائيل: استريحوا في هذا اليوم، ولا تعملوا شيئا، فسمّي يوم السبت، أي يوم الراحة. وأصل السبت: التّمدّد، ومن تمدّد استراح. ومنه قيل: رجل مسبوت، ويقال: سبتت المرأة شعرها: إذا نقضته من العقص وأرسلته»[2].

وبالجُملةِ؛ فإنَّ كتابَ (تأويل مُشكلِ القُرآن) كتابٌ نافعٌ، ينبغي على كلِّ طالبٍ في الدِّراسات القُرآنيَّة تحصيلُهُ واقتناؤُهُ.

وقد ذكر الشَّنقيطيُّ رحمه الله (ت:1393هـ=1973م) في (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) ثلاثة أوجهٍ في تخريجها، تُنظر ص100.

[1] ابن قُتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص26.

[2] المصدرُ نفسُه، ص54.